Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمضى فى القصيدة مصورًا حيرةً تقضّ مضجعه إزاء الفلك وحركته وما يقال – فى رأى بعض المتفلسفة – من سيطرته على الكون بكل ما فيه، ويتساءل جزعًا ملتاعًا هل حركته عن اختيار أو عن قهر وإجبار، وما مصير الأرواح؟ وهل تُرفَع فى السماء إلى مدار الفلك العلوى أو تفنى مع الأجساد فى العالم السفلى، وتتملكه حيرة لا تنتهى إزاء المجرَّة وأنوارها، إنه لا يدرى هل هى موج من الأضواء كموج البحر المتدفق المتألق أو هى تموجات ضوئية تلمع كما يلمع الوميض على جانب الفِرنْد أو السيف. ويحار فى ذهول هل الهلال طَوْقٌ يتَّخذ حليةً لبعض النجوم أو هو سِوار يدٍ يرصِّع صفحة السماء؟ ويقف مبهوتًا أمام النجوم، فهل هى أرواح سابحة فى الفضاء أو هى حَباب طاف على لُجج السموات كحباب الماء؟ وإنها لتنتشر وتنبسط فى صفحة السماء ليلًا وتُطْوَى نهارًا كما يطوى الإزار. تلك بعض ألغاز الكون وابنُ الشِّبْل يقف أمامها حائرًا مروّعًا ولا يملك لها ردًّا ولا جوابا، وعلى شاكلتها ألغاز الحياة الإنسانية. ويتلفت من حوله، فيرى الدهر ينثر الأعمار كما تنثر الرياح الورود فى الرياض، وإن قلبه ليمتلئ حيرة وحسرة، إذ يرى الدنيا كلما وضعت جنينا ووهبته الوجود والحياة لم تضمه – كعادة الأمهات – إلى صدرها، بل ألقتْ به – مزورَّة – إلى مرضعة قبيحة ترضعه الكوارث والخطوب. وما الحياة فى رأى ابن الشبل إلّا يوم بائس تعس بدون أمس يسبقه وبدون غد يلحقه،وتموج القصيدةِ بِحَيرْةٍ لاضفاف لها ولا حدود، إزاء الكون والحياة والوجود.

وخطأ أن نقول عن هذه القصيدة وأمثالها إنها هرمة بلغت من الكبر عِتيًّا، بل هى شابَّة تموج بِنَضْرة الشباب بما تصور من هذه الحيرة، وما يُطْوى فيها من الشعور بالكرب والوجوم إزاء طلاسم الكون وأسرار الوجود وما يرصد الإنسان فيه من الشرور والآلام، وهى حيرة ستظل باقية ما بقى الإنسان. وتتفجر هذه الحيرة تلقاء الوجود والكون والحياة فى شكل بركان ثائر لا يزال يقذف بالحمم الملتهبة عند أبى العلاء فى ديوانه «اللزوميات» وفى سيول متأججة بديوانه سقط الزند على نحو ما يلقانا فى داليته المشهورة: